«أي أن معجزتي التي تَحَدَّيْتُ بها هي الوحي الذي أُنزل عليَّ، وهو القرآن، لما اشتمل عليه من الإعجاز الواضح...»(١).

وقال رسول الله ﷺ أيضاً: «ألاَ إني أُوتيت الكتاب ومثله معه...»(٢). يعني بالكتاب القرآن، ومثله يعني السنة. والأحاديث في هذا المعنى كثيرة تؤكد على أن القرآن لم يصدر عن الرسول ﷺ ابتداء، وإنما أُنزل عليه، وأنه كلام الله تعالى. وقد آمن بهذه الحقيقة أجيال المسلمين من لدن عصر الصحابة، ولا تزال هذه الحقيقة هي الركيزة الأساسية لإيمان المؤمنين، لا يحيد عنها إلا هالك.

المبحث الثاني

بدء نزول القرآن

إن مَن يريد أن يتعرف على بدء الظاهرة القرآنية فعليه أن يدرس البيئة التي ظهرت فيها، فإن القرآن وإن لم يكن من صنع تلك البيئة فإن كثيراً من معانيه لا تفهم إلا بمعرفتها، كما أن دراسة سيرة الرجل الذي نزل عليه القرآن ضرورة لتفهم كيفية نزول القرآن وإدراك حقيقة الدعوة التي تضمنها. ولا يتسع المكان لعرض تلك التفاصيل هنا، ونفترض أن القارئ على معرفة مناسبة لها. ونكتفي بنقل قول محمد بن سعد الذي يلخص فيه معالم شخصية النبي ﷺ قبل البعثة، حيث قال: «شبَّ رسول الله ﷺ مع أبي طالب، يَكْلَؤُهُ الله ويحفظه ويحوطهُ من أمور الجاهلية ومعايبها، لِمَا يريد به من كرامته، وهو على دين قومه، حتى بلغ أن كان رجلاً أفضلَ قومه مروءةً، وأحسنهم خلقاً، وأكرمَهم مخالطةً، وأحسنَهم جواراً، وأعظمَهم حِلْماً وأمانة، وأصدقَهم حديثاً، وأبعدَهم من الفحش والأذى،

---

(١) فتح الباري ٩/٦.

(٢) رواه أبو داود في سننه ٤/٢٠٠.

وما رُئِيَ مُلاَحِياً ولا ممارياً أحداً، حتى سماه قومه الأمين، لِمَا جمع الله له من الأمور الصالحة، فقد كان الغالب عليه بمكة الأمين»[1].

وفي السَنَـة التي بلغ فيها النبي ﷺ الأربعين من عمره بدأ تحول كبير في حياته لم يكن قد تهيأ له من قبل، لكن العناية الإلهية كانت ترعى ذلك التحول وتوجهه نحو النبوة الكاملة التي تنكشف فيها حجب الغيب، ويتنزل الوحي بالقرآن عليه. وكانت أُولى مظاهر ذلك التحول أن النبي ﷺ قال لخديجة، رضي الله عنها: «إني أرى ضوءاً وأسمع صوتاً»[2]. وتتابعت إرهاصات النبوة التي انتهت باللقاء الأول بين رسول الله ﷺ والملك جبريل عليه السلام الذي حمل الرسالة إليه.

وتقدِّمُ الروايات التاريخية والأحاديث الصحيحة وصفاً لبدء نزول القرآن على رسول الله ﷺ، ونقل البخاري في كتابه الجامع الصحيح، كما جاء في غيره من المصادر المعتمدة تفاصيل ذلك الحدث العظيم عن عائشة، رضي الله عنها، حيث قالت[3]: «كان أَوَّلُ ما بُدِئَ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقةَ (أو الصالحة) في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فَلَق الصبح.

قالت: فمكث على ذلك ما شاء الله، وحُبِّبَ إليه الخلوة، فلم يكن شيءٌ أحبَّ إليه منها، وكان يخلو بغار حِرَاء[4] فيتحنث فيه ـ وهو التعبد ـ الليالي ذوات العدد، قبل أن يرجع إلى أهله فيتزود لمثلها، حتى فَجَئِهَ الحق وهو في غار حراء.

---

(١) الطبقات الكبرى ١/ ١٢١.

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند (١/ ٣١٢) عن ابن عباس، وينظر: الهيثمي: مجمع الزوائد ٨/ ٢٥٥.

(٣) البخاري: الجامع الصحيح ١/ ٥. وينظر: ابن سعد: الطبقات الكبرى ١/ ١٩٤، وابن هشام: السيرة النبوية ١/ ٢٣٤، وعبد الرزاق: المصنف ٥/ ٣٢١، وصحيح مسلم بشرح النووي ٢/ ١٩٧.

(٤) حِرَاء: بالمد وكسر الحاء، جبل من جبال مكة على ثلاثة أميال منها، في أعلاه قمة شامخة، وفيه الغار الذي كان يأوي إليه رسول الله ﷺ.

فجاءه الملك فقال: ٱقرأ، قال: ما أنا بقارئٍ، قال: فأخذني فغَطَّنِي[1] حتى بلغ مني الجُهْد، ثم أرسلني، فقال: أقرأ، قلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجُهْد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ،فقلت ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني، فقال: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾ [العلق].

فرجع بها الرسول ﷺ يَرْجُفُ فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد، رضي الله عنها، فقال: زَمِّلُوني[2]، حتى ذهب عنه الرَّوْع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر: لقد خَشِيتُ على نفسي، فقالت خديجة: كلا، واللهِ ما يخزيك اللهُ أبداً، إنَكَ لتصل الرَّحِمَ، وتحمل الكَلَّ، وتكسب المعدوم، وتَقْرِي الضيف، وتُعين على نوائب الحق.

فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزىٰ، ابن عم خديجة، كان ٱمرأً تنصَّر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء أن يكتب[3]. وكان شيخاً كبيراً قد عَمِيَ، فقالت له خديجة: يا ابن عم، ٱسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس[4] الذي نَزَّل الله على موسى، يا ليتني فيها جذعاً، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ: أَوَ مُخْرِجِيَّ هم؟ قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عُودِيَ، وإن يُدْرِكْنِي يومُك أَنصرْك نصراً مؤزراً، ثم لم ينشب[5] ورقة أن توفي، وفتر الوحي».

---

(١) الغط: العصر الشديد (ينظر: ابن الأثير: النهاية ٣/ ٣٧٣).

(٢) زملوني: دثِّروني وغطُّوني (ابن الأثير: النهاية ٢/ ٣١٣).

(٣) كان ورقة يكتب بالعربيةكما كان يكتب بالعبرانية (ابن حجر: فتح الباري ١/ ٢٥).

(٤) الناموس: صاحب سر الوحي، والمراد به جبريل، عليه السلام.(ابن منظور: لسان العرب ٨/ ١٣٠ نمس).

(٥) لم ينشب: لم يلبث (ابن الأثير: النهاية ٥/ ٥٢).

قال ابن سعد: «نزل الملك على رسول الله ﷺ بحراء، يوم الاثنين، لسبع عشرة خلت من شهر رمضان[1]، ورسول الله يومئذ ابن أربعين سنة، وجبريل الذي كان ينزل عليه بالوحي»[2].

وقد قال الله تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴿١٨٥﴾ ﴾ [البقرة].

المبحث الثالث

فتور[3] الوحي

إن الارتقاء إلى مقام النبوة الذي تنكشف معه حجب الغيب، ويتصل الإنسان فيه بعالم الروح ـ أمر يستدعي كثيراً من الإعداد النفسي الذي ينقل الإنسان إلى ذلك المقام من غير أن يصاب بانهيار نفسي أو اضطراب عقلي. ويلمس المتأمل جوانب ذلك الإعداد الإلهي في حياة النبي محمد ﷺ متمثلة بأمور عدة منها:

١- ما رآه وسمعه من الضوء والصوت غير المألوف له من قبل.

٢- الرؤيا الصادقة التي صارت تتكرر وتتحقق مما يخرج عن العادة.

٣- الميل نحو الخلوة، وتفرغه لها في أعلى جبل حِرَاء، وما توحيه تلك الخلوة في ليلها الساجي الساكن ونهارها الضاحي الطويل من شعور.

٤- ما لقيه ﷺ من الضم الشديد من الملك في اللقاء الأول، لإعداده لتحمل الثقل المصاحب لإيحاء القرآن إليه.

---

(١) يقابل ذلك شهر شباط من سنة ٦١٠ من التقويم الميلادي (ينظر: محمد عبد الله دراز: مدخل إلى القرآن الكريم ص٢٨).

(٢) الطبقات الكبرى ١/ ١٩٤.

(٣) فتور الوحي: انقطاع نزول جبريل على النبي ﷺ مدة بعد نزوله عليه في غار حراء.

وقد كان رسول الله ﷺ بعد ذلك اللقاء المبارك في غار حراء في حاجة إلى وقت للراحة والتأمل في حقيقة هذا الأمر الجديد في حياته، وتحقق ذلك بانقطاع نزول جبريل عليه مدة من الوقت جعلته يتشوق إلى لقائه مرة أُخرى، بعد أن زال عنه الرَّوْع، وأخذ يتفكر في كلمات ورقة بن نوفل الذي لم يلبث أن توفي بعد أن سمع منه تفسيره لما وقع له في غار حراء، فروى ابن سعد عن عبد الله بن عباس «أن رسول الله ﷺ لَمَّا نزل عليه الوحي بحراء مكث أياماً لا يرىٰ جبريل، فحزن حزناً شديداً، حتى كان يغدو إلى ثَبِير[1] مرة وإلى حِرَاء مرة، يريد أن يلقي نفسه منه، فبينا رسول الله ﷺ كذلك عامداً لبعض تلك الجبال إذ سمع صوتاً من السماء. فوقف رسول الله ﷺ صعقاً للصوت، ثم رفع رأسه، فإذا جبريل يقول: يا محمد أنت رسول الله حقاً، وأنا جبريل، قال: فٱنصرف رسول الله ﷺ وقد أقرَّ ٱللّٰهُ عَيْنَهُ، وربَطَ جَأْشَهُ، ثم تتابع الوحي بَعْدُ وحَمِيَ»[2].

ونقل البخاري الرواية بتفصيل آخر عن جابر بن عبد الله الأنصاري «قال وهو يُحَدِّثُ عن فترة الوحي، فقال في حديثه: بينا أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء، فرفعت بصري، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فَـرُعِـبْتُ منه، فرجعت فقلت: زمِّلوني، فدثِّروه، فأنزل الله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ ﴾ [المدثر]، ثم تتابع الوحي»[3].

وهكذا ذهب في هذه الفترة ما وجده رسول الله ﷺ من الروْعْ في لقاء غار حراء، وكذلك تشوقَ، بعد ذهاب الروْعْ عنه، إلى رؤية الملك مرة أخرى[4].

---

(١) ثَبِـيـر: جبل من جبال مكة. (ينظر: صفي الدين البغدادي: مراصد الاطلاع ١/ ٢٩٢).

(٢) الطبقات الكبرى ١/ ١٩٦.

(٣) صحيح البخاري ١/ ٦ و ٦/ ٢١٥، وصحيح مسلم بشرح النووي ٢/ ٢٠٦.

(٤) ينظر: العيني: عمدة القارى ١/ ٦٢.